الدرس العاشر

تفسير سورة القلم [٤٦ : ٥٢]

{أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ (٤٦) أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ (٤٧) فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ (٤٨) لَوْلَا أَنْ تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ (٤٩) فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ (٥٠) وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ (٥١) وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ (٥٢)}

{أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ} هذا تفنيد لجميع متعلقات الكفار أي هل طالبتهم بعوض وغرم لقاء دعوتك إياهم، فهم إنما ردوا دعوتك لأنهم لا يطيقون تحمل هذا الغرم الثقيل، لا والله، {قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ } [الفرقان: ٥٧]، قالها جميع أنبياء الله لأقوامهم وبينوا لهم بأن ليس لهم غرض دنيوي، وأنهم لا يسعون لأمجاد شخصية ولا لدواعي حزبية أو قومية أو إقليمية، بل هي خالصة لله، كما أمر نبيه:{قُلْ هَـذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللهِّ} [يوسف:١٠٨]، فدعوة الأنبياء جميعا نقية خالصة لله رب العالمين، ليس فيها أي شائبة، وهذا أمر مهم يجب أن يتلبس به الداعية إلى الله ﷻ بأن تكون دعوته نقية ليست مشوبة ومخلوطة بأغراض شخصية.

فالناس حينما يشعرون أن داعية من الدعاة له غرض شخصي ـ أو يريد أن يستجري من موعظته بعض الأعطيات والصدقات يسقط من أعينهم، ولا يمنحون ثقتهم ولا يسلمون قلوبهم إلا لمن رأوا أنه يريد نفعهم وبرهم، وأنه لا ينشد إلا الله والدار الآخرة، لهذا كان من المهم جدا للداعية إلى الله أن ينسج على منوال الأنبياء.

هذه المادة لم تراجع على الشيخ حفظه الله

{أَمْ عِندَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ} [القلم:٤٧] إن لم تكن تلك فهل يدعون أنهم مستغنون عن دعوتك، وأن عندهم من العلوم ما يغنيهم فهم يستنسخون هذه العلوم من وراء سجن الغيب؟ الحقيقة: لا هذا ولا هذا، فليس لهم متعلق يتعلقون به، {أَمْ عِندَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ}.

ولما لم يكن الأمر هذا ولا هذا، وطال النبي ﷺ منهم الأذى واتهموه بشتى التهم كما في صدر السورة بالجنون والسحر والكذب والافتراء قال له ربه: {فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلاَ تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ} [القلم:٤٨] يعني فاصبر على أذاهم فسيحكم ربك.

والنبي ﷺ وجميع المؤمنين مأمورون بالصبر لحكم الله الشرعي ولحكم الله القدري، فحكم الله نوعان، شرعي وقدري، فالحكم الشرعي هو الأوامر والنواهي، الحلال والحرام، فكل ما حكم الله ﷻ به شرعا فيجب أن نقبله ولا نرغب عنه، قال الله ﷻ: {أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ} [المائدة:٥٠].

وقال أيضًا: {فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّىَ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُواْ فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا} [النساء:٦٥]، فلا بد من الصبر لحكم الله الشرعي، فلا يعترض أحد على حكم الله الشرعي من الحدود، كقطع يد السارق ورجم الزاني أو الشرائع كالصلوات الخمس وزكاة المال.

وهذه الآية دليل على أن من رد شرع الله وارتضى الأحكام الوضعية والقوانين الوضعية سواء كانت فرنسية أو إنجليزية أو ألمانية أو غير ذلك واستعاض بها عن حكم الله ﷻ فقد زال عنه وصف الإيمان.

كما أن الإنسان مطلوب منه أن يؤمن بحكم الله القدري وهو ما يقضيه الله قدراً

وكونا من أنواع المصائب والبلاء، فإنه لا يخلو منها مسلم ولا كافر ولا بر ولا فاجر، فأما المؤمن فيتلقاها بالصبر، قال الله تعالى: {مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللهِ وَمَن يُؤْمِن بِاللهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيم} [التغابن:١١].

قال علقمة: (هو العبد تصيبه المصيبة فيعلم أنها من عند الله فيرضى ويسلم)[1]. ولا يعترض على حكم الله القدري وقائلًا: يا رب لما فعلت بي كذا، ها أنا أصلي وأصوم وأزكي وأحج فكيف أوقعت علي كذا، بل يجب أن يحسن الظن بربه، فإن الله لا يقضي على المؤمن قضاء إلا كان خيرا له.

والصبر في أصل معناه في اللغة: المنع والحبس، في الاصطلاح حبس النفس عن الجزع وحبس اللسان عن التشكي والسخط، وحبس الجوارح عن لطم الخدود وشق الجيوب وأمر الجاهلية، والصبر ثلاثة أنواع، صبر على طاعة الله وصبر عن معصية الله وصبر على أقدار الله المؤلمة.

الصبر على طاعة الله بأن يصبِّر الإنسان نفسه على الطاعات والمأمورات فلا يستثقلها، بل ينتدب لها ويتقي الله ما استطاع، والصبر عن معصية الله بأن يردع نفسه عن الوقوع في معاصي الله، فلا يقترفها ولا يجترحها، بل يجعل بينه وبين عذاب الله وقاية باجتنابها، والصبر على أقدار الله المؤلمة هو ما تقدم بيانه.

وقد اختلف العلماء هل الرضا واجب أم مستحب؟ والصحيح أن الواجب هو الصبر، وأما الرضا فمستحب، وقد ذهب أبو الوفاء بن عقيل رحمه الله إلى أن الرضا واجب، ورجح شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم أن الواجب هو الصبر، ومعنى الرضا أن يستوي عنده الحالان، وهذا لا يبلغه كل أحد، أما الصبر فلا بد منه، والحد

[1] تفسير الطبري- (٢٣/ ٤٢١).

الأدنى أن يعقل لسانه فلا يتكلم بالسخط، ويعقل جوارحه فلا يفعل فعل الجاهلية، وأن لا يسيء الظن بربه بقلبه، بل يحسن الظن بربه[1].

{وَلاَ تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ} [القلم:٤٨] صاحب الحوت يونس عليه السلام، ذو النون، فصاحب الحوت ﷺ أدركه شيء من الضجر وحمله ذلك على العجلة، فإنه ضجر من قومه وإبائهم واستكبارهم فخرج مغاضبا قبل أن يأذن الله تعالى له بذلك وفارق قومه، فساقه الله تعالى إلى الفلك المشحون، فركب معهم، فثقل بهم الفلك حتى كاد أن يغرق فاتفقوا على أن يجروا قرعة ويرموا أحدهم ليخف الوزن، فوقعت القرعة على يونس وجاء في بعض الآثار أنهم أسفوا لذلك فأعادوا القرعة ثانيةً وثالثة فتقع عليه، فأُلقي في اليم فالتقمه الحوت وهو مليم، يعني في محل اللوم، حوت فغر فاه بمجرد إلقائه في اليم فالتقمه فدخل في جوفه، فكان في ظلمات بعضها فوق بعض، ظلمة بطن الحوت وظلمة البحر وظلمة الليل قال تعالى: {وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَن لاَّ إِلَهَ إِلاَّ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ} [الأنبياء:٨٧].

{فَلَوْلاَ أَنَّهُ كَانَ مِنْ الْمُسَبِّحِينَ* لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ} [الصافات:١٤٣-١٤٤]، فنهى الله نبيه عن هذا الصنيع وهو أن يحمله الضجر على العجلة وفعل شيء لم يأذن الله ﷻ به، فقال: {فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلاَ تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ} ومعنى مكظوم أي مهموم مغموم، بلغ به الأمر شدته، أو كظم عليه جوف الحوت، والأقرب أن المقصود بالكظم هنا ما اعتراه من الهم والغم الشديد، لهذا قال في الآية الأخرى: {فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ} [الأنبياء:٨٨]، والغم هو شدة الهم، وهو الوصف الذي وصفه الله ها هنا.

[1] قاله شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في مجموع الفتاوى (٦٨٢/١٠) وقاله ابن القيم رحمه الله في " عدة الصابرين " (ص/٢٣١)

والنداء الذي نادى به فسرته الآية الأخرى وهي قوله تعالى: {لاَّ إِلَـهَ إِلاَّ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ} [الأنبياء:٨٧]. فارتفع نداؤه إلى السماوات العلا وسمعته الملائكة وقالت يا رب صوت لم يزل يرتفع منه دعاء مجاب، وكلم طيب، فقال: ذاك عبدي ذا النون كذا وكذا، فقالت الملائكة: يا رب ألا تغفر له بسابقة عمله؟ فأنجاه الله ﷻ.

والقرآن يبسط القصة في مواضع ويختصرها في مواضع، {لَوْلاَ أَن تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاء وَهُوَ مَذْمُومٌ}. {لَوْلاَ أَن تَدَارَكَهُ}، وفي بعض القراءات: (تَدَّارَكُهُ) بِتَشْدِيدِ الدَّالِّ وفي بعضها (فتداركه) بفك التشديد ومعناها واحد.

النعمة التي أدركته هي نعمة التوبة، تاب فتاب الله عليه، ولو أنه لم يتب لكان كما قال الله: {لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ} [الصافات:١٤٣]، أي لكانت مقبرته الدائمة، ثم يقول الله: {وَأَنبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ} [الصافات:١٤٦] واليقطين نوع من القرع ورقها لين مظل، فأظلته حتى استعاد عافيته وقوته، آية من آيات الله، لكن المقصود ها هنا أن الله تعالى يصبر نبيه ﷺ، ومع ذلك فلم يكن هذا السياق في قصة ذي النون من باب التثريب عليه، فإن الله قد تاب عليه، ولا يجوز لأحد كائنا من كان أن يذمه، فإن الله ﷻ رفع عنه المذمة.

نبذ: أي أُلقي بالعراء المراد به الفضاء، حيث إن الله أمر الحوت أن يشق طبقات المياه والأمواج ثم يلفظه فيخرج هذا الكائن الهزيل الذي تساقط جلده وصار كفرخ الطير على ضفاف البحر.

{لَنُبِذَ بِالْعَرَاء وَهُوَ مَذْمُومٌ}، إذًا لم ينبذ مذموما بل محمودًا، {فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ} [القلم:٥٠] اجتباه بمعنى اصطفاه ورضي عنه، وآمن به قومه، كما قال في

هذه المادة لم تراجع على الشيخ حفظه الله

الصافات: {وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُون * فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِين} [الصافات:١٤٧-١٤٨]، وذلك أن قومه بعد أن خرج من بين ظهرانيهم ندموا على ما وقع منهم، وخرجوا يطلبونه فنجوا. كما قال الله في سورة يونس: {فَلَوْلاَ كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلاَّ قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ آمَنُواْ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِين} [يونس:٩٨]، فليس لأحد أن يذم ذا النون بسبب هذه الفعلة؛ لأن الله قد تاب عليه، كما أن آدم عليه السلام ليس لأحد أن يذمه على أكله من الشجرة؛ لأن الله سبحانه وتعالى قد تاب عليه، عن أبي هُرَيْرَةَ، قَالَ: (قَالَ رَسُولُ اللهِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " احْتَجَّ آدَمُ وَمُوسَى، فَقَالَ مُوسَى: يَا آدَمُ أَنْتَ أَبُونَا خَيَّبْتَنَا وَأَخْرَجْتَنَا مِنَ الْجَنَّةِ، فَقَالَ لَهُ آدَمُ: أَنْتَ مُوسَى، اصْطَفَاكَ اللهُ بِكَلَامِهِ، وَخَطَّ لَكَ بِيَدِهِ، أَتَلُومُنِي عَلَى أَمْرٍ قَدَّرَهُ اللهُ عَلَيَّ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَنِي بِأَرْبَعِينَ سَنَةً؟ " فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «فَحَجَّ آدَمُ مُوسَى، فَحَجَّ آدَمُ مُوسَى»)[1]، فليس لأحد أن يذم من تيب عليه.

فلو قدر أن أحدا رأى بعض من كان يصدر منه فسق وفجور ثم تاب واستقام فليس له أن يذمه على أمر تاب منه، فإن رحمة الله أوسع من مذمته ولومه، وقد جاء في الحديث أن النبي ﷺ قال: « لاَ يَنْبَغِي لِعَبْدٍ أَنْ يَقُولَ: أَنَا خَيْرٌ مِنْ يُونُسَ بْنِ مَتَّى »[2].

والمفاضلة بين الأنبياء فيها تفصيل، فلا ريب أن الأنبياء يتفاضلون؛ لأن الله قال: {تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ} [البقرة:٢٥٣]، فأفضلهم الخليلان إبراهيم ومحمد عليهما الصلاة والسلام، وأفضل الخليلين محمد ﷺ، ثم يليهما موسى، ثم يليهما نوح عليه السلام وعيسى عليه السلام فإنها في درجة واحدة عند معظم العلماء، فهؤلاء أولو العزم من الرسل الذين ذكرهم الله في موضعين من القرآن مقترنين، ثم بقية أنبياء الله.

[1] أخرجه البخاري- (٣٤٠٩)، ومسلم- (٢٦٥٢).
[2] أخرجه البخاري- (٣٣٩٥)، ومسلم- (٢٣٧٦)،

هذه المادة لم تراجع على الشيخ حفظه الله

لكن الذي لا يجوز هو المفاضلة على سبيل التباهي والتفاخر، أو على سبيل تنقص الطرف الآخر، فقد وقع في زمن النبي ﷺ أن يهوديا قال في سوق المدينة: والذي فضل موسى بن عمران على العالمين، فلطمه مسلم، وقال: وعلى محمد يا عدو الله؟ فارتفع اليهودي إلى النبي ﷺ يشكو هذا المسلم الذي لطمه، فقال النبي ﷺ: «لَا تُخَيِّرُوا بَيْنَ الْأَنْبِيَاءِ»[1]، فهذا النهي محمول على المخايرة التي تكون على سبيل المباهاة، كأن يقول نبينا خير من نبيكم فيقابله آخر ويقول: بل نبينا خير من نبيكم، فهذا ليس من شأن العقلاء.

أو أن يكون على سبيل التنقص للنبي الآخر لأمرِ ابتلاه الله به، فهذا كله مذموم، وعليه تتنزل نصوص النهي، أما من حيث الواقع فكما قال الله: {تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ}.

ثم قال تعالى: {وَإِن يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ} [القلم:٥١] وفي قراءة: لَيَزْلِقُونَكَ؛ لأنها إما من زلق أو أزلق، فإذا اعتبرنا فعلها أزلق فالقراءة: لَيُزْلِقُونَكَ، وإن كانت من زلق فهي لَيَزْلِقُونَكَ.

وللمفسرين في هذه الآية قولان، بعضهم يقول: أي يعينونك، من العين، والعين حق، وأنه من طرائقهم لإيصال الأذى بالنبي ﷺ أن يصيبوه بالعين فنظر إليه قوم من قريش وقالوا: ما رأينا مثله ولا مثل حججه. وقيل: كانت العين في بني أسد، حتى إن البقرة السمينة أو الناقة السمينة تمر بأحدهم فَيُعَايِنُهَا ثم يقول: يا جارية، خذي المكتل والدرهم فأتينا بلحم هذه الناقة، فما تبرح حتى تقع للموت فتنحر. وقال الكلبي: كان رجل من العرب يمكث لا يأكل شيئا يومين أو ثلاثة، ثم يرفع جانب الخباء فتمر به الإبل أو الغنم فيقول: لم أر كاليوم إبلا ولا غنما أحسن من هذه! فما تذهب إلا قليلا حتى تسقط

[1] أخرجه البخاري- (٢٤١٢) ومسلم-(٢٣٧٤).

منها طائفة هالكة. فسأل الكفار هذا الرجل أن يصيب لهم النبي صلى الله عليه وسلم بالعين فأجابهم، فلما مر النبي صلى الله عليه وسلم أنشد:

قَدْ كَانَ قَوْمُكَ يَحْسِبُونَكَ سَيِّدًا وَإِخَالُ أَنَّكَ سَيِّدٌ مَعْيُونُ

فعصم الله نبيه صلى الله عليه وسلم العين حق[1].

وذهب بعض المفسرين إلى أن الآية لا تدل على العين، وإنما المراد بذلك أنهم ينظرون إليك نظرا حديدا شديدا من شدة تغيظهم عليك حتى تكاد تقع في مشيتك، وهذا أمر يدركه الناس، يعني حينما يمشي إنسان بين قوم ينظرون إليه نظرا حديدا قد يرتبك ويقع من شدة نظرهم، وليس هذا من باب العين، لكن من باب الارتباك النفسي وإحداد النظر إليه.

والعين حق ولا شك، وإنما الخلاف في هل المراد بهذه الآية العين؟ وقد ذهب ابن كثير رحمه الله على أن الآية تدل على إثبات العين، وساق جملة من الأحاديث الدالة على إثبات العين.

منها: حديث أنس ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: « لا رُقْيَةَ إلا من عَيْنٍ أو حُمَةٍ أو دَمٍ لا يَرْقأ»[2] قال رسول الله ﷺ: « : لاَ رُقْيَةَ إِلَّا مِنْ عَيْنٍ أَوْ حُمَةٍ »[3]، وقال النبي ﷺ: « الْعَيْنُ حَقٌّ، وَلَوْ كَانَ شَيْءٌ سَابَقَ الْقَدَرَ سَبَقَتْهُ الْعَيْنُ، وَإِذَا اسْتُغْسِلْتُمْ فَاغْسِلُوا »[4].

وعنه، أي عن ابن عباس قال: كان رسول الله ﷺ يعوذ الحسن والحسين يقول: « كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُعَوِّذُ الحَسَنَ وَالحُسَيْنَ، وَيَقُولُ: " إِنَّ أَبَاكُمَا كَانَ يُعَوِّذُ بِهَا إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ: أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللهِ التَّامَّةِ، مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ وَهَامَّةٍ، وَمِنْ كُلِّ عَيْنٍ لاَمَّةٍ»[5].

[1] تفسير القرطبي - (١٨/ ٢٥٤- ٢٥٥).
[2] أخرجه ابو داود- (٣٨٨٩)، قال الأرنؤوط في نفس الموضع: صحيح دون قوله: (أو دَمٍ لا يَرْقأ).
[3] أخرجه البخاري- (٥٧٠٥)، ومسلم- (٢٢٠).
[4] أخرجه مسلم- (٢١٨٨).
[5] أخرجه البخاري- (٣٣٧١).

ومنها: حديث جابر ﷺ أن رسول الله ﷺ اشتكى، يعني مرض، فأتاه جبريل فقال: «بِسْمِ اللهِ أَرْقِيكَ، وَاللهُ يَشْفِيكَ مِنْ كُلِّ دَاءٍ يُؤْذِيكَ، وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ، وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ »[1]، وقال ﷺ: « العَيْنُ حَقٌّ »[2]، ومنها: حديث أسماء بنت عميس قالت: يا رسول الله إن بني جعفر تصيبهم العين، جعفر بن أبي طالب، تصيبهم العين أفأسترقي لهم؟ يعني أطلب لهم الرقية؟ قال: « الْعَيْنُ حَقٌّ، وَلَوْ كَانَ شَيْءٌ سَابَقَ الْقَدَرَ سَبَقَتْهُ الْعَيْنُ، وَإِذَا اسْتُغْسِلْتُمْ فَاغْسِلُوا »[3].

ومن الأحاديث أيضًا حديث عائشة الذي رواه ابن ماجة أن رسول الله ﷺ أمرها أن تسترقي من العين، أخرجه الشيخان وابن ماجة، وعنها قالت: قال رسول الله ﷺ: « اسْتَعِيذُوا بِاللهِ، فَإِنَّ الْعَيْنَ حَقٌّ »[4]، أخرجه ابن ماجة، وعنها قالت: كان يؤمر العائن فيتوضأ ويغسل منه المعين، -يعني الذي أصابته العين-، رواه أبو داود وأحمد.

يفسر هذا حديث أَبِي أُمَامَةَ بْنِ سَهْلِ بْنِ حُنَيْفٍ، أَنَّ أَبَاهُ حَدَّثَهُ: (أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَرَجَ، وَسَارُوا مَعَهُ نَحْوَ مَكَّةَ، حَتَّى إِذَا كَانُوا بِشِعْبِ الْخَزَّارِ مِنَ الْجُحْفَةِ، اغْتَسَلَ سَهْلُ بْنُ حُنَيْفٍ وَكَانَ رَجُلًا أَبْيَضَ، حَسَنَ الْجِسْمِ، وَالْجِلْدِ، فَنَظَرَ إِلَيْهِ عَامِرُ بْنُ رَبِيعَةَ أَخُو بَنِي عَدِيِّ بْنِ كَعْبٍ وَهُوَ يَغْتَسِلُ، فَقَالَ: مَارَأَيْتُ كَالْيَوْمِ، وَلَا جِلْدَ مُخَبَّأَةٍ فَلُبِطَ بِسَهْلٍ، فَأُتِيَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقِيلَ لَهُ: يَا رَسُولَ اللهِ، هَلْ لَكَ فِي سَهْلٍ؟ وَاللهِ مَا يَرْفَعُ رَأْسَهُ، وَمَا يُفِيقُ، قَالَ: " هَلْ تَتَّهِمُونَ فِيهِ مِنْ أَحَدٍ؟ " قَالُوا: نَظَرَ إِلَيْهِ عَامِرُ بْنُ رَبِيعَةَ فَدَعَا رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَامِرًا، فَتَغَيَّظَ عَلَيْهِ وَقَالَ: " عَلَامَ يَقْتُلُ أَحَدُكُمْ أَخَاهُ؟ هَلَّا إِذَا رَأَيْتَ مَا يُعْجِبُكَ بَرَّكْتَ؟ " ثُمَّ قَالَ لَهُ: " اغْتَسِلْ لَهُ " فَغَسَلَ وَجْهَهُ، وَيَدَيْهِ،

[1] أخرجه احمد- (٩٧٥٨).
[2] اخرجه البخاري- (٥٧٤٠)، ومسلم- (٢١٨٧).
[3] سبق تخريجه.
[4] أخرجه ابن ماجه- (٣٥٠٨)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٩٥١).

هذه المادة لم تراجع على الشيخ حفظه الله

وَمِرْفَقَيْهِ، وَرُكْبَتَيْهِ، وَأَطْرَافَ رِجْلَيْهِ، وَدَاخِلَةَ إِزَارِهِ فِي قَدَحٍ، ثُمَّ صُبَّ ذَلِكَ الْمَاءُ عَلَيْهِ، يَصُبُّهُ رَجُلٌ عَلَى رَأْسِهِ، وَظَهْرِهِ مِنْ خَلْفِهِ، يُكْفِئُ الْقَدَحَ وَرَاءَهُ، فَفَعَلَ بِهِ ذَلِكَ، فَرَاحَ سَهْلٌ مَعَ النَّاسِ لَيْسَ بِهِ بَأْسٌ)[1].

فهذا يدل على كيفية معالجة العين، وأنه إذا تحقق الإنسان من أن أحدا عان أحدا فإنه يؤخذ أثر من العائن من أطرافه، يديه ورجليه وركبتيه ووجهه وفضل وضوئه وأيضًا مما يباشر جسمه كالإزار أو الفانلة أو الطاقية التي يعرق عليها ويغمس في ماء ثم يصب صبا فوق رأس المعين وعلى ظهره فيعود معافى بإذن الله تعالى.

وليس في الأحاديث أنه يشرب منه كما يتوهم بعض العامة، وإنما يصب عليه، فهذا أمر ثابت حقا ولا ينكره إلا مكابر أو جاهل، فإن العين حق يعرفها الناس، لكن من الناس من يبالغ في الخوف من العين إلى درجة الرهاب، فيحمله ذلك على تعطيل مصالحه وعدم المضي فيما يحتاج إليه، وهذا نقص في التوكل.

فالذي ينبغي للإنسان أن يؤمن بأن العين حق لكن يستعيذ بالله، يحافظ على المعوذتين وأذكار الصباح والمساء ويمضي لشأنه، ولا يعيقه ذلك عن مصالحه، فإن الله ﷻ قد قدر المقادير.

وإن أصابه شيء من ذلك فإنه يسعى في رفعه، ولهذا قال النبي ﷺ: « وَإِذَا اسْتُغْسِلْتُمْ فَاغْسِلُوا»[2]، فمن طُلب منه أن يستغسل لا يقول كيف تتهموني الخ، لا ضير إن كان قد وقع منك ذلك فلا يضرك أن تنفع أخاك، فإن هذا أدعى لإبراء ذمتك.

لكن ينبغي الحذر من المغالاة في ذلك، فإن من الناس من يصيبه نوع من الوسواس في العين فيخيل إليه أن كل شيء يطرأ عليه من الأعراض البشرية أنه بسبب العين دون

[1] أخرجه أحمد- (١٥٩٨٠)، وابن ماجه- (٣٥٠٩).
[2] سبق تخريجه

قرينة ودون سبب، فيدخل في دوامة من الأوهام وينتقل من باب إلى باب ويوزع التهم على عباد الله يمنة ويسرة، هذا لا يجوز، ولا يبني على مجرد الظن، فإن الظن أكذب الحديث. والنبي ﷺ قال: هل تتهمون من أحد؟ يعني هل، هناك دليل، هل هناك قرينة، أما إذا لم يكن شيء فما أكثر الأعراض البشرية المشتركة، قد يصاب الإنسان بالصداع، بالمغص وغيرها من الأمراض ويكون لأسباب أخر غير العين، فهذا لون.

واللون الآخر من ينكر العين ولا يؤمن إلا بالمحسوسات، فهذا جهل مقابل، فالتوسط مطلوب في جميع الأمور، {لَّمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ} [القلم:٥١] والذكر هو القرآن، {وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ} دائما المبطلون يلقون بالتهم جزافا ويفتقون ويبتكرون المصطلحات الإعلامية وصم المؤمنين بالسوء كما يقولون الإرهاب وغير ذلك. وكما قال في أول السورة: {مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ} [القلم:٢]، فهذه دعوى تذرعوا بها لينفروا الناس من نبينا ﷺ، لكن ما الحق الذي لا مرية فيه: {وَمَا هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ} [القلم:٥٢].

فالقرآن العظيم ذكر للعالمين جميعا، لا يختص بالعرب وحدهم أو بقريش وحدها، {قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لا إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ يُحْيِـي وَيُمِيتُ فَآمِنُواْ بِاللهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ} [الأعراف:١٥٨]، {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ} [الأنبياء:١٠٧].

إذًا القرآن ذكر للعالمين، يعني يذكرهم بما خلقوا لأجله من عبادة الله، يذكرهم بحق ربهم عليهم من العلم به بأسمائه وصفاته، ويذكرهم بعبوديتهم له وما ينبغي لله تعالى من الطاعة وفعل الأوامر واجتناب المناهي، ليس لمجرد التطريب بسماعه بأنواع الأداء والقراءات ، لكن ما هو أعظم من ذلك ما يتضمنه من المعاني والحقائق.

هذه المادة لم تراجع على الشيخ حفظه الله

الفوائد المستفادة:

الفائدة الأولى: إثبات صفة الساق لله تعالى باقتران بدلالة الكتاب والسنة.

الفائدة الثانية: أن التكليف والعبادة لا ينقطعان بالموت.

الفائدة الثالثة: فضل السجود، وأنه من أجلى مظاهر العبودية.

الفائدة الرابعة: وجوب صلاة الجماعة: {وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ} [القلم:٤٣]، الدعاء إلى السجود بأن يقول المؤذن حي على الصلاة، حي على الفلاح، فالذي لا يستجيب لذلك تارك صلاة الجماعة.

الفائدة الخامسة: أن الجزاء من جنس العمل.

الفائدة السادسة: المذلة البليغة التي تلحق بالكفار، وظهورها في الأبصار.

الفائدة السابعة: المقابلة العجيبة بين حال الكفار في الدنيا بالاختيار وحالهم في الآخرة بالاضطرار، كانوا في الدنيا سالمين وفي الآخرة مضطرين.

الفائدة الثامنة: الوعيد الشديد والتهديد الأكيد في قوله: فَذَرْنِي.

الفائدة التاسعة: شؤم التكذيب بالقرآن.

الفائدة العاشرة: خطورة الاستدراج والإملاء وحقيقته وفظاعة عاقبته.

الفائدة الحادية عشرة: إثبات صفة الكيد المحمود لله تعالى، وأنه شديد متين.

الفائدة الثانية عشرة: تبرئة النبي ﷺ من كل غرض دنيوي.

الفائدة الثالثة عشرة: أهمية نزاهة الداعية وعدم تلبسه بأدنى شبهة قادحة.

الفائدة الرابعة عشرة: افتقار الكفار للحجة والدليل وتعويلهم على الظن والتخمين.

الفائدة الخامسة عشرة: وجوب الصبر لحكم الله الشرعي والقدري.

الفائدة السادسة عشرة: والنهي عن الضجر على ما يترتب على حكم الله.

هذه المادة لم تراجع على الشيخ حفظه الله

الفائدة السابعة عشرة: فائدة ضرب الأمثال فالمثال يقرب المعنى.

الفائدة الثامنة عشرة: فضيلة الذكر والتسبيح في تنفيس الكربات وحصول الفرج كما حصل لذي النون عليه السلام.

الفائدة التاسعة عشرة: إسناد النعمة إلى الله وحده والحذر من نسبتها لغيره.

الفائدة العشرون: بيان نعمة الله على يونس عليه السلام وتداركه بنعمته وفضله.

الفائدة الحادية والعشرون: إثبات القدر والاجتباء والاصطفاء بما تقتضيه حكمته، فالذي قدر على يونس أن يخرج مغاضبا وأن يلتقمه الحوت هو الذي قدر بعد ذلك أن يجتبيه وأن يصطفيه وأن يجعله من الصالحين، كل ذلك بقدر الله.

الفائدة الثانية والعشرون: شدة بغض الكفار للنبي ﷺ، وكذلك لأتباعه من المؤمنين.

الفائدة الثالثة والعشرون: إثبات العين، وأنها حق والحذر من إنكارها.

الفائدة الرابعة والعشرون: وصف القرآن بالذكر، وأنه علم له ووصف له.

الفائدة الخامسة والعشرون: التنبه لأسلوب المبطلين في اصطناع التهم وترويجها.

الفائدة السادسة والعشرون: عالمية القرآن وتناوله لجميع الثقلين، {وَمَا هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ} [القلم:٥٢]، فلا يختص بالإنس وحدهم، بل بالإنس والجن.

هذه المادة لم تراجع على الشيخ حفظه الله